

يحاكئني إلى هذه المواضع وإلى أمثالها ... ما دام لا يستطيع أن يسرد « القرآن كله » في مجلة الرسالة للاستشهاد !

وأحسب : أن ليس هكذا تكون مقاييس الفنون !
والذي أفهمه أنا حين أقول عن التصوير في القرآن : « فليس هو حلية أسلوب ، ولا فلتة تقع حيناً اتفاق . إنما هو مذهب مقرر وخطة موحدة ، وخصيصة شاملة » أو حين أقول : « والأمثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كله حيناً تعرض لتعرض من الأغراض التي ذكرنا ... »

الذي أفهمه حين أقول هذا : أن السمة الواضحة التي تحدد « عنوان » الطريقة المتبعة في القرآن هي سمة « التصوير » وأن هذا لا يبنى انتفاء نص أو عدة نصوص لا تتضح فيها هذه السمة ، إنما الطابع العام هو الذي يعينني ، وهو الذي يعنى كل ناقد ينظر في عمل فني ، فيبحث عن السمات العامة فيه ، ولن يجد من يقول له : إن هنا سطرأ أو فقرة أو صفحة لا تتضح فيها هذه السمة . فذلك آخر ما يقال في الحكم على الفنون .

فأما حين تكون في العمل فنقول إن خصائص « الأكجين » هي كيت وكيت . فإن لكل باحث أن يقول : نعم أو كلا . إن هناك خصيصة ذكرت خطأ ، أو هناك خصيصة نسبت . فالحكم غير صحيح !

وهذه هي نسخة المصحف التي كانت مرجعاً في أثناء تحضير كتابي . تحمل صفحاتها « تأشيراتي » على مواضع التصوير في القرآن . وهأنذا لا أكاد أجد صفحة واحدة خلت من موضع يحمل إشارة إلا أن تكون تشريعاً ... وهذا حسبي لتقرير هذه الحقيقة التي قررتها في كتابي بعد التشبع بطريقة القرآن ، والحياة في جوه أكبر وقت استطاع .

بل هأنذا أنظر في كلمة الأستاذ عبد المنعم الأولى التي يمدد فيها طرائق التعبير القرآني فيقول : « إنني أترك له أن يستعرض صفحات القرآن فيسجد أن التصوير الفني أداة واحدة من أدوات التعبير الكثيرة في القرآن ؛ وليست هي الغالبة ولا الكثيرة (١) فتارة يعبر عن المعنى المراد بالتعبير المشكاف المعنى واللفظ الذي يستخدم الألفاظ الوضعية وحدها (٢) وتارة يستعمل لفظة واحدة من غير أسرة الألفاظ التي في الجملة ليحرك بها الخيال وليس الحسن لما رقيقاً (٣) وتارة تكون ألفاظ الحقيقة

الجمال الفني والعقيدة الدينية

في القرآن الكريم

للأستاذ سيد قطب

- ١ -

منذ أسبوعين قرأ الناس في الرسالة « مناقشات » الأستاذ عبد المنعم خلاف حول « التصوير الفني في القرآن » وحول « المنطق الوجداني » كذلك .

وإذا أنا عدت اليوم إلى مناقشة هذه المناقشات ، فإنما يدعوني إليها أنها طريقة مضمونة لتوجيه النظر إلى الجمال الفني في القرآن من زاوية لم تعرف قبل الآن . فأننا أزعم أن هذا الجمال قد بقي مجهولاً في الغالب ، منذ أن حاول تجليته الإمام « عبد القاهر » فوصل إلى أقصى ما يتيحه له عصره ... ثم لم يتابعه أحد في الطريق الصحيح ، إلا فلتات تقع بين الحين والحين .

وأنا أزعم كذلك أن الأدب العربي لم ينتفع الانتفاع الواجب بكتاب الإسلام المقدس ، كما انتفعت آداب الأمم المسيحية بكتابتهم المقدسة من الوجهة الفنية ... فكل تجلية لطريقة القرآن الأدبية ولمواضع الجمال فيها على طريقة فنية شاملة إنما هي كسب للأدب العربي - ولو جاء متأخراً جد التأخر عن مواعده - وتوسيع لآفاق النظرة الفنية للبلاغة ، واتجاه بها إلى « النقد الفني » الذي كان يجب أن يصير إليه ، لو لم تركد عند القواعد البلاغية الجافة التي يحاكمون إليها الجمال الفني في الأدب العربي عامة

لا يزال الأستاذ عبد المنعم يجادلني حول طريقة التعبير المفضلة في القرآن ، وحول العقيدة بين المنطق والوجدان . فلتحدث اليوم عن المسألة الأولى . فأننا أزعم أن الطريقة المفضلة هي « التصوير » ويرى هو هذا الزعم مبالغة دعا إليها مجرد الحواس .

وحيث أحيله على المصحف لينظر صدق ما أتجه إليه يرى أنني أحيله إلى محال على طريقة « جحا » في عد نجوم السماء !

ولكنه يفتح المصحف هنا وهناك فيجد أمثلة لا تنطبق عليها القاعدة ، ويرى مواضع للتعبير لا يبرز فيها التصوير . وعندئذ

« لون من ألوان » التخيل » يمكن أن نسميه « التشخيص »
يشتمل في خلق الحياة على المواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية ،
والانفعالات الوجدانية . هذه الحياة قد ترتق فتصبح حياة إنسانية
تشمل المواد والظواهر والانفعالات ، وتهب لهذه الأشياء كلها
عواطف آدمية وخلجات إنسانية تشارك بها الآدميين ، وتأخذ
منهم وتعطي ، وتتبدى لهم في شتى الملاحظات ، وتجعلهم يحسون
الحياة في كل شيء تقع عليه العين ، أو يتلبس به الحس ، فيأمنون
بهذا الوجود أو يرمونه في توفز وحسابية وإرهاق .

« هذا هو الصبح يتنفس . (والصبح إذا تنفس) فيخيل
إليك هذه الحياة الوديمة الهادئة التي تنفرج عنها ثنياه ، وهو
يتنفس فتتنفس معه الحياة ، ويدب النشاط في الأحياء ، على وجه
الأرض والسماء .

« وهذا هو الليل يسرع في طلب النهار فلا يستطيع له
دركا : (يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) ويدور الخيال مع هذه
الدورة الدائبة التي لا نهاية لها ولا ابتداء .

« أو هذا هو الليل يسرى : (والليل إذا يسرى) فتحس
سريانه في هذا الكون العريض ، وتأس بهذا السارى على هينة
واتئاد .

« وهاتان هما الأرض والسماء عاقلتين يوجه إليهما الخطاب
قتسرعان بالجواب : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها
والأرض اتنيا طوعا أو كرها . قالتا أتينا طائعين) والخيال
شاخص إلى الأرض والسماء ، تدعيان وتجيبيان السماء .

« وهذه هي الأرض « هامة » مرة و « خاشعة » مرة ينزل
عليها الماء قهتزا وتحيا : (وترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها
الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ومن
آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت
وربت ... »

« ومن « التجسيم » وصف المعنوي بمحسوس كوصف
العذاب بأنه غليظ : (ومن وراءهم عذاب غليظ) واليوم بأنه
ثقليل : (ويدعون وراءهم يوما ثقيلا) والرياح بأنها لواقح تشبها
لها بالحيوان لما تحمل من مطر (وأرسلنا الرياح لواقح) .

« وضرب الأمثلة على المعنوي بمحسوس كقوله : (ما جعل
الله لرجل من قلوبين في جوفه) لبيان أن القلب الإنساني لا يقع

وملابسات الخيال متساوية (٤) ونارة تكون ملابسات التصوير
وإثارة الخيال هي الغالبة (٥) ونارة تكون هي الشكل ... »

فهذه خمس طرائق للتعبير عددها الأستاذ عبد المنعم ... أنظر
فأرى أربعا منها مما أعنيه حين أذكر طريقة التصوير . وواحدة
فقط هي التي نسلك الطريقة الذهنية المجردة . وتكملة لهذا البيان
أقرر أن هذه الطريقة تكثر في مواضع التشريع وفي بعض مواضع
القرآن لأنها تكاد تطرد في سائر الأغراض .

أم لعل الأستاذ عبد المنعم لا يرى التصوير إلا في الطريقة
الخامسة وحدها ؟ هكذا فهمت منه حين يقول تعقياً على النصوص
التي استشهد بها في مقاله الأخير !

« فأين في هذه الآيات وأمثالها الكثيرة « التصوير الفني »
الذي لفت نظر الأستاذ سيد وأثار خياله حتى وهو طفل بمحبته
في اللوحات ذات الوحدة والتناظر والتمثيل الجامع ذي الظلال
والأجواء الشاملة كما يتجلى في « ومن الناس من يعبد الله على حرف
فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ... »

وجوابي على هذا أن هذا اللون « الفاقع » من التصوير ليس
من الضروري أن يتحقق دائماً لنطلق عليه عنوان « التصوير »
وإذا كان هذا اللون هو الذي لفت خياله في الطفولة ، فهذا شأن
الطفولة التي لا تلفتها إلا الألوان الزاهية الصارخة . فأما حين
تكتمل الحواس الفنية ، فعلى خليقة أن تدرك أدق الخطوط وأهدأ
الألوان ، وتنفعل بها أشد الانفعال ... وهذا هو الذي كان !

ولكن أكنت أنا مقصراً في التنبيه إلى ما أعنيه بالتصوير
في القرآن ، وهل تركت مجالا في كتابي لثل هذا اللبس !
فلنعد إلى بعض نصوص الكتاب :

جاء في صفحة ٣٢ من الكتاب ، في فصل « التصوير الفني »
« ويجب أن تتوسع في معنى « التصوير » حتى ندرك
آفاق التصوير الفني في القرآن . فهو تصوير باللون ، وتصوير
بالحركة ، وتصوير بالتخيل ؛ كما أنه تصوير بالنعمة تقوم مقام اللون
في التمثيل . وكثيراً ما يشترك الوصف ، والحوار ، وجرس
الكلمات ، ونغم العبارات ، وموسيقى السياق ، في إبراز صورة
من الصور ؛ تتلها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر
والوجدان ... »

وجاء في صفحة ٦٠ وما بعدها في فصل « التخيل الحسي
والتجسيم » بعض التطبيقات لهذه القواعد :

القرآن ضربت الأمثلة بالموسيقى التصويرية التي نهى الجو العام في مثل :

« والضحي . والليل إذا سجي . ما ودعك ربك وما قلى .
وللاخرة خير لك من الأولى . وسوف يمطيك ربك فترضى .
ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً
فآوى . »

فهنا إيقاع موسيقى هادى لطيف يصور الجو العام الذى
يمتس فيه معانى السورة . وهو مخالف حتماً للإيقاع السبع من
مثل قوله :

« كلا إذا دك الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملاك مصفاً
مصفاً . »

والموسيقى التصويرية لون من ألوان التصوير الفنى بلا جدال .

التصوير هو القاعدة العامة فى تمثيل القرآن ... أكررها
مرة ومرة ، لا إصراراً على قول ، ولكن اقتناعاً بعد درس .
وكل ما أطلبه إلى الأستاذ عبد المنعم ألا يناكثنى فى هذا الرأى إلى
نص أو مثال . ولكن إلى سمة غالبة ، وإلى شمول فى معنى التصوير
كما يسته فى مواضع متعددة من كتابى . وإنى لأطلب إليه وكتابى
بين يديه أن يعود فيقرأه كله ثم يقرأ القرآن !

ويسبق تقويم هذا التصوير ، والأستاذ يقول : « إنما يثبت
أننا لو ربطنا بين سر الإعجاز وبين التصوير الفنى وحده نكون قد
سويتنا بين تمثيل القرآن وبين غيره من موارد أرباب البيان الرفيع
فى كل لغة إذ أننا نجد فى موارد استخدام التصوير الفنى ... »
ولست أدري كيف يقال هذا الكلام بعد ما رددت به على
الأستاذ نجيب محفوظ فى تقويم هذا التصوير فى القرآن وفى
الشعر عامة ؟

إن العبرة ليست باستخدام التصوير ، ولكن بمستوى هذا
التصوير من التناسق والحياة . وقد كشفت فى كتابى فى مواضع
كثيرة عن تفرد التصوير القرآنى فى خصائصه فلم يبق مجال لمثل
هذا الاعتراض الذى ينطبق على جميع طرائق التعبير لا على
طريقة التصوير وحدها . ولا حكم فيه على أى طريقة . لأن السمة
شئ ومستواها شئ آخر والسلام .

سير قطب

لأنجاهين . ومثل (ولا تكونوا كالتى نقصت غزلها - من بعد
قوة - أنكانا) لبيان البعث فى نقص العهد بعد المعاهدة ...
وجاء فى ص ٧٤ وما بعدها فى فصل « التناسق الفنى » .
« هناك المواضع التى يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد
تصويرها فيساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية .
وهذه خطوة مشتركة بين التعبير للتعبير ، والتعبير للتصوير ... مثال
ذلك : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) .
فإن كلمة « الدواب » تطلق عادة على الحيوان - وإن كانت تشمل
الإنسان فيما تشمل لأنه يدب على الأرض - ولكن شمولها هذا
للإنسان ليس هو الذى يبادر إلى الذهن ، لأن للعادة حكمها فى
الاستعمال . فاختيار كلمة « الدواب » هنا ثم تجسيم الحالة التى
تمنهم من الانتفاع بالهدى يوسفهم « الصم البكم » كلاهما يكمل
صورة الغفلة والحيوانية التى يريد أن يرسمها لهؤلاء الذين لا يؤمنون
لأنهم « لا يعقلون » !

« وقد يستقل لفظ واحد - لا عبارة كاملة - برسم صورة
شاخصة - لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة - ...
تسمع الأذن كلمة « أناقلتم » فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا ما لكم
إذا قيل لكم افروا فى سبيل أناسكم إلى الأرض ؟) فيتصور
التخيل ذلك الجسم المشاغل ، ليرفعه الرافعون فى جهد فيستقل من
أيديهم فى ثقل . إن فى هذه الكلمة « طناً » على الأقل من الأفعال !
« وتقرأ : (وإن منكم لَمَن يُبَسِّطُنَّ) فترسم صورة
التبسط فى جرس العبارة كلها - وفى جرس « يبسطن » خاصة
وإن اللسان ليكاد يتعثر وهو يتخبط فيها حتى يصل إلى نهايتها «
« وتتلو حكاية قول هود . (قال أرايتم إن كنت على بينة
من ربى وآتاني رحمة من عنده فمُصِّيت عليكم أنزلْكموها
وأنتم لها كارهون ؟) فتحس أن كلمة « أنزلْكموها » تصور جو
الإكراه بإدماج هذه الضمائر فى النطق وشد بعضها إلى بعض ،
كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويُشدون إليه وهم منه
نافرون ! »

وهكذا ...

وفى هذا الفصل عند استعراض آفاق التناسق الفنى فى